

السؤال الرابع و العشرون

ما الحكمة من ترتيب الأنبياء في السموات في رحلة المعراج؟

في السماء الأولى وجد سيدنا آدم، وفي السماء الثانية وجد سيدنا عيسى ويحيى، وفي السماء الثالثة وجد سيدنا يوسف، وفي السماء الرابعة وجد سيدنا إدريس، وفي السماء الخامسة وجد سيدنا هارون، وفي السماء السادسة وجد سيدنا موسى، وفي السماء السابعة وجد سيدنا إبراهيم خليل الرحمن - عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

هذا الترتيب فيه حكم كثيرة، هذه الحكم قل فيها ما شئت، لكن باهما جميعاً: (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ) (٢٨٢ البقرة) بعد تقوى الله يلهم الله عز وجل العبد ببعض هذه الحكم، نسوق منها مثلاً :

كلمة سماء من السمو أى الرفعة، أى أن رفعة المرء وترقيه في مقامات القرب عند الله عز وجل تنطبق على هذه السماوات السبع، وما فيها من أوصاف الأنبياء والمرسلين، فأول ما يبدأ الإنسان في السير إلى مو ه يحتاج أو أن يصلح حياته الآدمية، ويُغذّي هذا الجسد الآدمي من حلال، لأن الرزق الحلال هو الذي يحفظه من الزلل والوقوع في المعاصي، وهو الذي يسوقه أيضاً إلى طاعة الله، ويحببه في كتاب الله، ويُسوقه إلى رسول الله وإلى العمل الصالح الرافع عند مو ه.

فإذا أصلح حياته الآدمية أحيا الله قلبه فيحى الحياة الروحانية، والاستجابة بعيسى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) (٢٤ الأنفال)، والنداء للمؤمنين. إذن الحياة هنا هي الحياة القلبية، الحياة بنور الإيمان وبالعمل الصالح الذي يحبه حضرة الرحمن، هذه الحياة إشارة إليها (يحيى)، وهذه الحياة لأنها حياة يحياها الله بد أن تكون حياة روحانية، وعيسى إشارة إليها، ولذلك كانا معاً في هذه السماء، حتى تكون حياة روحانية، وليست حياة آدمية أو إنسانية.

فإذا أحيا الله عز وجل العبد بالحياة الإيمانية جمّله الله بالجمال الإلهية، بالجمال اليوسفية، فكان مجملاً بأنوار الله، ولذلك عندما يتقي عبد مو ه، عندما تراه تشعر نحوه بالإجلال، وتشهد في وجهه قبساً من الجمال، تستطيع أن تقول جملاً حسياً، لكنه جمال روحي، وهبه له الله عز وجل لأنه تقى ونقى - الجمال اليوسفي الذي قال فيه الله: (فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) (يوسف). أيضاً هذا التقى النقى عندما يراه العابدون، أو العلماء والمتحدثون، ويرون الجمال التي منحها له الله، والمواهب التي أفاضها عليه مو ه، (يُقطعن أيديهن)، أي: ما حصلنه بكسبهن من العلوم والمعارف والعبادات، ويستسلمن له ليحظون بفضل الله جل في علاه.

فينتقل إلى المقام الأرقى وهو مقام المدرسة (إدريس)، فيتدار مع الملائكة طوراً، ويتدار مع أنبياء الله ورسله وأرواحهم طوراً، ويتدار مع الحبيب ﷺ طوراً، ويرتقي فيتدار مع ربه عز وجل: (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ) (٣العلق) أى اقرأ مع ربك، فيتلقى العلوم الإلهامية الوهية من مصادرها الربانية التي أشرنا إلى بعضها، ونستطيع تفصيلها، لأن تفصيلها فوق الطاقة والإمكان، والعلوم الإلهية طاقة للعقول البشرية بسماع أسماءها فضلاً عن إحصائها، فضلاً عن فهمها، لأنها تُفهم بالعقول وإنما تُفهم بأنوار القلوب إذا زالت منها العيوب وفتحت لحضرة

علام الغيوب عز وجل.

فإذا مُنح العلوم الوهيبية رزقه الله الحكمة الهارونية، فسيدينا هارون إشارة إلى الحكمة، لأنه كان حكيماً، فيكون قوله بحكمة، وحركاته بحكمه، وسكناته بحكمة. يراه النا حكيماً في كل أحواله وتصرفاته وأفعاله، وهذا الذي أطمع أن يكون إخواني داخلين فيه، فالحكيم يصدر منه تصرف حكيم، ويخرج من فيه قول حكيم، وهو به عليم، وينفع به لغيره التعليم، يُعَلِّمُ النا بحركاته وسكناته وإشاراته قبل أقواله: (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا) (البقرة: ٢٦٩).

فإذا تفضّل الله عز وجلّ عليه بالحكمة الإلهية، وظهرت عليه في تصرفاته السلوكية وحياته البشرية، رَقَّاه الله عز وجلّ إلى مقام المحادثة مع الحضرة الإلهية، فيحادث مو ه، ويكلم الله جل في علاه، كما قال الله: (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ) (٥١ الشورى) فيحظى بهذه الرتبة الإلهية، يكلمه الله آونة في قلبه، ويأخذ الله عز وجلّ أحياناً روحه إليه، ويثبه ما يريد أن يهبه إليه من المواهب الإلهية والعطايا الربانية، حتى يصل ببعض هؤلاء أن الحق عز وجلّ يشاورهم في بعض الأشياء إعلاءً لشأنهم، وتديلاً على رفعة مقدارهم. كان بعضهم يقول على سبيل الد ل: ((يحدث في كون الله أمر إ شاورني الله عز وجلّ فيه)).

فإذا أكرمه الله عز وجلّ بهذا المقام، وُزِعَ إلى مقام المحادثة والمؤانسة والمجالسة تخللت محبة الله كل حقائقه الظاهرة والباطنة، فلا تصير فيه ذرة ظاهرة أو باطنة إ وتتجه إلى الله، وتشده إلى الله، وتذكره بالله، وتأخذه إلى حضرة الله، فتتخلل هذه المحبة كل حقائقه، فيكون خليلاً لله جلّ في علاه، أي: يكون في مقام الخليل، وهذه منتهى مقامات السائلين، ومنتهى مقامات السالكين، ومنتهى مقامات المريدين، ومنتهى مقامات المحبين، ومنتهى مقامات المُخْلِصِينَ.

وبعد ذلك المُخْلِصُونَ والمحبوبون والمطلوبون والمرادون بد أن يكونوا على قدم سيد الأولين والآخريين، حتى يمشوا على قدمه، ويسيروا خلف حضرته، فقد ورد في تفسير حقى وغيره أنه ليلة المعراج حين فارق جبريل في مقامه، فسمع صوتاً يشابه صوت أبي بكر رضي الله عنه، وهؤلاء هم الذين أشار إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في التشهد عندما قال: (فقلت: التحيات لله والصلوات الطيبات. فقال الله تعالى: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فقلت: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين).^١

وهي إشارة منه صلى الله عليه وسلم إلى أرواح من حوله من الكُمَّل. وهذا بحر قرار له، ومحيط حدّ له من الأسرار الإلهية والعلوم الربانية، وبابه: (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ) (٢٨٢ البقرة) وكلها خواطر إلهامية. وهناك إجابة أخرى لنفس السؤال وردت في موقف آخر وردت في السؤال التالي.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

^١ من حديث الإسراء فيما روى الزهري عن ابن سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، ورواه السدي عن محمد بن السائب عن بإذن عن ابن عباس رضي الله عنهما.